

الفصل الأول

الحبشة

لا يتخذ الناس الجبال أو الهضاب العالية موطناً ، إلا مضطرين . لأنها في الجملة حزون صعبة المرتقى ، وعرة المنحدر ، وعثة المسالك ، ناقصة في الثمرات . فلا يلجئون إليها — والحال هذه — إلا فراراً من عدو غالب ، أو هرباً من ديار أردأ جواً ، وأخبث نبتاً ، أو أسوأ جواراً .

وهي في أسوأ حالاتها مثل الصحارى أو البحار منزل قلعة . أو معبر تجتازه القبائل الراحلة ؛ أو الأقوام المهاجرة ، إلى السهول الخصيبة . بيد أنها إذا كانت في الأقاليم الحارة ، كانت أصلح لسكنى الإنسان من السهول المجاورة . وذلك لجودة هوائها . وطيب المقام فيها .

وخير مثال لهذا النوع من الهضاب والجبال بلاد الحبشة ، فهي على الرغم من أنها في قلب المنطقة الحارة ؛ فإن جوت هضباتها العالية معتدل جميل ^(١) . يشبه في جملته صيف بعض جهات أوروبا . ولقد وصف رحالة جوت أديس أبابا أى الزهرة الجديدة ، عاصمتها قال : « لا إخال أن جوت أى بلد آخر يعدله . فهو بحق مثال للجودة تستيقظ كل صباح فتستقبل شمساً صاحبة ، حرارتها لا تمدوحد الاحتمال أبداً . وذلك لارتفاعها العظيم ؛ ولرقة هوائها ؛ وبرد النسيم الذى يهب عليها دائماً غير مفتر وإذا ما أقبل الليل انخفضت درجة حرارة هوائها ، وأمسى الجو

(١) وفي ذلك يقول الأستاذ مراد كامل : « جو أديس أبابا بارد كجو الحريف عندنا يتراوح معدل حرارته بين ١٥° م ، ١٧° م . » . وفيما يلي متوسط درجات الحرارة لشهور السنة المختلفة :
يناير ١٦٦٦ فبراير ١٥٥٢ مارس ١٧٧٨ أبريل ١٦٦٢ مايو ١٧٥٣ يونيو ١٥٥١ يولي ١٣٧٧
أغسطس ١٤٥٩ سبتمبر ١٤٤٤ أكتوبر ١٥٥٦ نوفمبر ١٦٦٣ ديسمبر ١٥٥٦

جيلا . وأمكنتك أن تنام نوماً هادئاً مريحاً . وأصبحت ، وأنت لا تصدق أنك على مقربة من خط الاستواء ^(١) .

وهضبات الحبشة مغطاة بطبقة من الصخور البركانية الدسمة التي كون فتاتها أرض مصر السوداء الخصيبة ، وهي مخرسة وعمرة كثيرة الأخاديد ، والأودية العميقة التي تتجمع فيها مياه الأمطار ؛ فتجري جداول وأنهاراً ؛ يتصل معظمها بروافد النيل الثلاثة ، البحر الأزرق والسوبات والعطبرة . حاملة مياه الفيضان إليها .

وتنتهي الهضبات في الجنوب ، والجنوب الشرقي إلى نجاد قليلة الزرع . تليها صحارى قاحلة . وتشرف في الشرق على سهول منخفضة ممحلة . وتنحدر في الشمال والشمال الغربي إلى سهول قليلة الماء والنبات . ولا غرو فقد وصفها بعض الجغرافيين بأنها جنة فيحاء ، تحيط بها صحار جدداء .

والجو معتدل على سطح هضبات الحبشة ، كما قدمنا ، ولكنه بارد على قمات جبالها وذروتاتها ^(٢) . وحار جداً في السهول الشرقية وفي أودية الأنهار ^(٣) .

على أن أهم ظاهرة مناخية في الحبشة أمطارها الموسمية التي هي مصدر فيضان النيل . وتبدأ في يونية ، وتنتهي في أواخر سبتمبر ^(٤) . وقد تسقط الأمطار في فبراير

(١) وفي ذلك يقول أيضاً أحد الملحقين السياسيين في المفوضية الملكية المصرية في الحبشة . « هناك خطأ يسود الأذهان عن حرارة الجو في أثيوبيا ، إذ يتصوره الكثيرون حاراً لقربتها من خط الاستواء والواقع أن ارتفاع أديس أبابا عن مستوى سطح البحر بمقدار ٢٧٠٠ متراً (والحقيقة ٢٤٤٠ متراً) يلطف جوها ويجعله ربيعاً مستمراً » .

(٢) ويسمى الحبشان الأصقاع المرتفعة ديجاً ، ودرجة الحرارة فيها منخفضة جداً ، والبرد فيها لذلك شديد . ويجعل الثلج أكثر جهاتها ارتفاعاً .

(٣) ويسمى الحبشان هذه الجهات القلة وتمتاز بحرارتها الشديدة وبهوائها الرائد الرطب الذي تضيق معه الصدور ولا تطمئن له النفوس ، ويتجنب الحبشان الهبوط إليها .

(٤) يطول موسم المطر في جنوب الحبشة ، ويقصر تدريجاً نحو الشمال ، وهو بوجه عام أغزر في الجنوب منه في الشمال . ومن روافد النيل الجنوبية ثانی با كورة الفيضان .

ومارس، ويسمى الحبشان المطر الصغير^(١). وهي غير ثابتة ولا مؤكدة، وربما لا تسقط في بعض السنين مطلقاً. وقد تتأخر عن موعدها المذكور شهراً، أو يزيد. وقد تتأخر حتى تندمج في موسم الأمطار الصيفية الموسمية^(٢).

وتهطل الأمطار الموسمية غزيرة، فتحول الحقول والطرق والمسالك بعد قليل من بدئها بركا ومستنقعات تعرقل السير وتعوق المواصلات، فتتعطل المحاكم والمدارس، ودور الحكومة الأخرى لتعذر حضور المتقاضين، والشهود والموظفون والتلاميذ. ولا جناح في الحبشة على الموظفين إذا تغيّبوا في يوم غزير المطر^(٣).

وتنحدر الأمطار إلى الجداول والأنهار فتكتظ بها، ولكن سرعان ما تمسك السماء ماءها، فتصحو، ويصفو الجو، ويجف الهواء فلا يشعر الحبشان بالبلل الذي يشعر به سكان الجهات الاستوائية أروادها.

ويزعم بعض رواد الحبشة أن الأمطار تنزل في بعض جهاتها في ساعات معينة من اليوم، يكاد تضبط بها الساعات. فتبدأ في أديس أبابا، عاصمة الحبشة في نحو الساعة ٢١٥ بعد الظهر في كل يوم من أيام الصيف (أى طول مدة موسم الأمطار) ويستمر هطلانها ساعة واحدة، ثم تنقطع حتى الساعة الرابعة مساءً، فتستأنف

(١) متوسط عدد الأيام الممطرة في أثناء موسم المطر الصغير الذي يقدره بعضهم بثلاثة أشهر من مارس إلى مايو نحو ٢٩ يوماً ومتوسط ما يسقط في الشهر ١٠٠ مليمترًا.

(٢) ويسمى الحبشان الموسم الكبير (يونيه - سبتمبر) وعدد أيامه الممطرة ٩٢ يوماً ومتوسط ما يسقط في الشهر ٢٥٠ مليمترًا.

(٣) وقد كتب مراسل الاهرام الخاص في أديس أبابا (بتاريخ ١٨/٣/١٩٤٤) ما يأتي :
« حل موسم الأمطار التي يتزود منها نهر النيل، على أن هذا الموسم جاء متأخراً (ويقصد على الرغم من أن ...) فإن المطر يهطل بكثرة لم تعهد من قبل ، ويبلغ من غزارة المطر الآن ، أنها عطلت المواصلات الداخلية في البلاد ، وأن المحاكم قررت إغلاق أبوابها لتعذر حضور المتقاضين من الأماكن البعيدة كما أن وزارة المعارف الحبشية جرت على منح التلاميذ أجازة للتغيب عن مدارسهم طول موسم الأمطار . »

سقوطها ، وتستمر معظم الليل ^(١) . ويؤمن بعض من زار الحبشة من المصريين أن موسم الأمطار ينتهي في أديس أبابا فجأة في يوم معين ، وهو يوم ٢٧ سبتمبر من كل سنة ، ويؤمن سكانها أنهم لا يذكرون أن الأمطار سقطت قط بعد هذا اليوم حتى تبدأ موسم المطر التالي ^(٢) .

وتكثر العواصف الرعدية في أثناء موسم الأمطار .

ولقد وصف سائح عاصفة قال : « بدت السحب على الأفق الشرقي . وسرعان ما غطت وجه السماء ، سوداء داكنة ؛ فوارت الشمس وراء حجاب كثيف ؛ لم تستطع أشعتها هتكه . ثم رعد الرعد ، وبرق البرق . وبدأ الهواء الذي كان ساكناً منذ دقائق معدودة ، يرفرف . ويتن أنيناً محزوناً مخيفاً . وخيل إلى أن عناصر الطبيعة تعاني آلاماً مبرحة . وأن انفصام عمى العالم أصبح أقرب من جبل الوريد . ولم تلبث الأمطار أن انهمرت انهماراً شديداً واستمرت العاصفة ساعة ، قرت بعدها فجأة كأن لم تكن . لولا ما خلفت بعدها من مياه غمرت السهول المجاورة ؛ وأشجار ملقاة على الأرض اجثتها من أصولها .

ومعظم أرض الحبشة سراخ خصيبة تتجلى بأجلى مظهر لها في أثناء موسم الأمطار ^(٣)

(١) نقلا عن الأستاذ مسيحة عبد السيد المدرس بالمدرسة التوفيقية سابقاً ، والذي كان مبعوثاً للحبشة من قبل وزارة المعارف .

(٢) نقلا عن الأستاذ مسيحة على أن المعلومات التي لدينا تثبت أن المطر لا يسكاد ينقطع في أي شهر من شهور السنة في جميع أنحاء الحبشة ، وإن كان أكثره يسقط في شهور الصيف (يونيو — سبتمبر) ونسبته نحو ٨٠٪ .

وفيا يلي لإحصاء بما يسقط في أديس أبابا موزعاً على أشهر السنة بالمليمتر :

يناير ١٥ فبراير ٤٨ مارس ٧٠ أبريل ٨٧ مايو ٧٥ يونيو ١٤٦ يوليو ٢٧٨ أغسطس ٣٠٨ سبتمبر ١٩٢ أكتوبر ٢٠ نوفمبر ١٤ ديسمبر ٦ .

(٣) وفي ذلك يقول الأستاذ مراد كامل : ويجرد انتهاء موسم الأمطار فكسو البلاد طبقة من الزهور المتنوعة الجميلة ، وخضرة براقية — وإذا ما سرت في الطريق إلى مدينة حجة (شبابا) صحبتك رائحة الياسمين الذي يتعرع الخ . . .

وفي الأيام التالية له مباشرة إذ تحول الأرض بساطاً من السندس الأخضر تتخلله
الزهور الملونة ، والورود الحمراء العابقة .

وتتخلل هذه المراعى أشجار تتقارب كل المقاربة حتى تصير غابات فى أسفل
سفوح الهضبة الغربية ، وفى بطون الأودية وفى بعض الربا والجبال .
ولقد كانت الحبشة فى الماضى القريب أكثر أشجاراً . إذ كانت مساحات واسعة
من أرضها مغطاة بغابات كثيفة اجتث الأهلون كثيراً منها . واستعملوها حطباً يوقدونه
للدفء ، ولطهى الطعام . واقد كان الملوك وجنودهم يحلون بالأماكن المشجرة .
ولا يزالون يقطعون شجرها حتى يأتوا عليه ، ثم يتركونها إلى أماكن مشجرة أخرى
وهكذا دواليك . ولهذا السبب توارى كثير من غابات الحبشة وقل شجرها .

وتسرح فى المراعى ملايين من البقر الصغير الحجم ذى السنام ؛ ومن الخيل والحير
والبغال والضأن والماعز .

وما يزرع من أرض الحبشة قليل بالنسبة لمساحتها . وأهم ما يزرع فيها البن والطيف
والذرة ، كما يزرع قليل من القمح والشعير والقطن وقصب السكر ، وبعض الفواكه
كالتين والزيتون والكرام والبرتقال والخوخ والبرقوق والرمان والموز وبعض الخضرا .
وتتحول المراعى فى أواخر فصل الجفاف إلى هشيم يطلق الحبشان فيه النيران
قبل نزول الأمطار مباشرة .

ولقد وصف سائح منظر هذه النيران بين مناظر الحبشة الطبيعية المختلفة قال.....
أشرفت من رأس أحد التلال المطلة على ضفة نهر تكازا الشمالية فرأيت ضباباً أبيض
كالثالج منتشرأ فوق النهر الذى ينساب ، متلوياً فى وادٍ سحيق ، تكسو جوانبه
أدغال كثيفة من شجر الأبنوس والمطاط والتمر الهندى ، تسرح الفيلة فى جنباتها .
ورأيت النار تلتهم الكلاً والشجيرات المنتشرة فيه . وتتصاعد منها أسنة حمر من
اللهب يداعبها الهواء فتثنى وتمايل ذات اليمين وذات الشمال . ويخرج منها دخان

داكن ينتشر في الفضاء فينشر جواً خافتاً في الربا المجاورة . ومددت بصرى فنغذ من
هذا المنظر إلى منظر رائع أشد الروعة . جميل أشد الجمال . منظر جبال « سَمِين » ،
وتلها الذاهبة في الفضاء ، كأنها غرقى فى لجة من لجن ، صاغتبا أشعة القمر الفضية
الساجية الباردة .